مجلّة اللّغة العربيّة المجلّد: 22 العدد: 50 السّنة: الثّلاثيّ الثّاني 2020 ص: 125 - 154

البعد الأخلاقي في شعر عروة بن الورد

ethical dimension in Orwa ben el-Ward's poesy

أ. خلاف بوحالة*
المشرف : أ. موسى مريان

تاريخ الإرسال: 10 10 2019 تاريخ القبول: 04 02 2020

الملخّص: يهدف هذا البحث بكل حيثياته إلى استجلاء مجمل الأبعاد الأخلاقيّة التي طغت على شعر"عروة بن الورد" أحد الصّعاليك الجاهلين المشهورين المقدّمين الأجواد وذلك من خلال تحليل وشرح مجموعة من أشعاره التي تغطيها نسمة إنسانيّة أخلاقيّة فكم هي كثيرة تلك الآراء التي تحكم على العصر الجاهلي بصفات الطّيش والتخلف والبعد عن التجمل بالصّفات الأخلاقيّة الحسنة، لكن أكثر من ذلك آراؤهم حول طائفة الشّعراء الصّعاليك التي يعتبرونها مثالا عن التمرد والقسوة والنّهب والبطش فقط، ناسين ذلك الجانب الأخلاقي المتستر تحت أشعار بعض منهم ونخص هنا بالذّكر "عرووة بن الورد"، لأنه وإن صح حكم المجحفين فلن يشمل على الأقل هذه الشّخصيّة الرّفيعة بأخلاقها وإنسانيتها في ذاك العصر.

وعليه فقد اخترنا هذه المحطة بالذّات كي تسمح لنا من التغلغل في هذه الشّخصيّة التي تستحق البحث والدّراسة والاهتمام وفق رؤيّة موضوعاتيّة نراها تتناسب أكثر مع عدسة بحثنا وتمكننا من معرفة مدى حضور القيم الأخلاقيّة

* جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة، البريد الإلكتروني: bouhalakhelef@gmail.com

في شعر هذا الشّاعر، وتؤكد لنا كذلك أنّ الأخلاق لا ترتبط بعصر دون آخر أو دين دون آخر.

الكلمات المفتاحيّة: عروة بن الورد، الصّعاليك، البعد الأخلاقي. العصر الجاهلي.

Abstract: The main objective of this paper is to clarify the all ethical dimensions which have dominantly been existed in Orwa ben el-Ward's poesy, one of the best and famous poets called "al-Sa'alik" at the preislamic epoch, by analyzing and explicating a party of his poems with a social, humanistic and ethical content. Where a several viewpoints with bad qualities such immorality and backwardness and those without good ethical qualities governed this preislamic age, but, moreover, their opinion on the poets "al-Sa'alik" denomination, inasmuch those people considered them just the example of rebellion, cruelty, pillage and oppression , also, totally forgetting that ethical aspect that is hidden in the poesy of some such poets , we mention here especially the father of the "Sa'alik" : "Orwa ben el-Ward", because even if an oppressive judgment it is, it wouldn't include at least this sublime personage with his ethics and humanity at that epoch. Thus, we have especially chosen this station which allows us to dive in this personage that deserves research, study and interest according to a thematic vision that seems more suitable with our study and allows us to know the existence range of ethical values in the poesy of this poet, also, this study underline for us that ethics are not exclusive to a specific epoch or religion.

Key words: Orwa ben el-Ward, al-Sa'alik, ethical dimension, preislamic epoch.

1.المقدّمة: إنّ ما لا شك فيه أنّ القيم الأخلاقيّة والفضائل الإنسانيّة تحضر بكثرة في الشّعر العربي الجاهلي بما في ذلك شعر طائفة الشّعراء الصّعاليك وذلك ليس لأنّ بحثنا يدور حول شاعر من هذه الفئة (عروة بن الورد) بالذّات وإنّما لكون شعرهم ينتمي إلى الحقبة الجاهليّة التي تعتبر عمومًا الأصل الأوّل لمختلف الطّباع والسّجايا العربيّة التي ذكرها الشّعراء في أشعارهم وتفننوا في ذلك « فالشّاعر يضع القيم والمبادئ والأخلاق في مقدّمة اهتماماته» [1] وللأمانة فإنّ هؤلاء الصّعاليك الجاهليين الشّجعان لم يكونوا كلهم لصوصا وقطاع طرق غايتهم المغنم والتزوّد فقط، وإنّما وجد فيهم من يبتغي أغراضا شريفة من مساعدة المحتاجين وإغاثة المرضى المصابين ونصرة المظلومين المضطهدين أيضا.

وعند الحديث عن هذه الصّفات الخلقيّة والإنسانيّة الحميدة لدى الشّعراء الصّعاليك لا نقصد أحدا قبل الفارس النّبيل 'عروة بن الورد'، ذلك الشّاعر الذي جمع بين الفروسيّة والشّاعريّة في آن واحد، كيف لا وهو من أهم الشّعراء العرب الجاهليين وأحد الفرسان المقدمين بأخلاقه النّبيلة أو بشجاعته ومواقفه الكبيرة مع المحتاجين وقت الضّيق.

وقد تميز شاعرنا بجوده وكرمه وباقي أخلاقه الكريمة التي تتمثّل في جميع قيم النّبل الحقيقي والتي مست جميع المحتاجين والفقراء وليس رفاقه من الصّعاليك فقط، وهذا ما دفع الخليفة الأموي 'عبد المالك بن مروان' أن يقول فيه:« ما يسرُّني أن أحدا من العرب ممّن ولدني لم يلدني إلا عروة بن الورد لقوله [2]:

إنّي امرؤ عافي إنائي شركةٌ
وأنت امرؤ عافي إنائك واحدُ
أتهزؤ مني أن سمنتَ ولأن ترى
بوجهي شحوب الحق والحقُّ جاهدُ

أفـــــرّقُ جســـــمي في جســـــوم كـــــثيرةٍ

وأحســـــو قـــــراحَ المـــــاء والمـــــاءُ بـــــاردُ

فهذا ما جعل الشّاعر عروة الأكثر جاذبيّة للدراسة والاهتمام في المجال الإنساني والأخلاقي وحتى الاجتماعي، حيث سنحاول أن نكتشف بعض الخصال والفضائل التي تميز بها هذا الشّاعر من خلال بعض الأبيات الشّعريّة التي تصحح النّظريّة التي جاءت بها بعض الدّراسات الأدبيّة والتاريخية القائلة بأن الشّعراء الصّعاليك بعيدون عن مجمل الصّفات الأخلاقيّة ولا يعرفون سوى الإغارة والنّهب وقطع الطّريق والبطش بالأعداء !.

وحقيقة أنّنا نجد بعض التفكير والنّظرة السّاذجة التي خيّمت على بعض الدّارسين مطولا حيث ما ذكرت لفظة الصّعلوك إلاّ وفُهم منها ما يتنافى مع القيم الأخلاقيّة و الإنسانيّة النّبيلة، وذلك لحكمهم العام على الفترة التي سبقت الإسلام ككل بالفترة المتخلفة والجاهلة في كل من نواحي الحياة، وأنّ العربي شخصٌ لديه شخصيّة فريدة إذ ينظر إلى الحياة بنظرة جامدة من كل الصّفات المعنويّة فقد قال أحد الباحثين بأنّ:« العربي ينظر إلى الأشياء نظرة ماديّة وضيعة، ولا يقومها إلاّ بما تنتج من نفع، يمتلك الطّمع مشاعره، وليس لديه مجال للخيال والعواطف، ولا يكترث بشيء إلاّ بقدر ما تنتجه من فائدة عمليّة » [3] وعليه فأحسن رد على أصحاب هذه النّظرة والحكم الضّيق أن نستحضر مجموعة من الأبيات الشّعريّة التي تفند رؤيتهم السّطحيّة وتؤكد في نفس الوقت صحة اختيارنا للشاعر عروة بن الورد مثالا للدراسة والاستدلال على ضيق نظرتهم، وإلاّ فما معنى حكم الخليفة الأموي عليه وافتتانه بشخصيته المتميزة؟ !.

2. الأخلاق لغة واصطلاحا:

2.1. لغة: تدور الدّلالة اللغويّة للفعل "**خلق**" حسب ما جاء في المعاجم اللغويّة حول طبيعة الإنسان وسجيته التي خلق عليها، يقول ابن منظور: « الخَلْقُ، بضم اللام وسكونها: وهو الدّين والطّبع والسّجيّة وحقيقته أنّه لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصّة بها » [4].

فالخلق - وجمعها أخلاق- وصف لهيئة الإنسان وصورته الباطنة التي خُلق عليها وقدِّر على نحوها فها هو صاحب القاموس المحيط يجعل الخَلق هو التقدير في مادة (خ.ل.ق) بقوله:« الخلْقُ، التقدير والخالقُ في صفاته تعالى المبدع للشيء المخترع على غير مثالٍ سَبَقَ،وصانعُ الأديمِ ونحوه وخلقَ الإفكَ افتراهُ كاختلقَهُ وتخلّقَهُ » [5].

والمعنى كذلك في قول 'الرّاغب الأصفهاني'« الخلقُ أصله: التقديرُ المستقيم، ويستعمل في إبداع الشّيء من غير أصلٍ ولا احتذاء » [6]، فمعناه الخلق والإبداع الأول، حيث نجده في القرآن الكريم في قوله تعالى في القرآن الكريم « خَلقَ السّمواتِ والأرضَ » [7]، أي أبدعهما وخلقهما أول مرّة وأحدثهما بعد أن لم يكن لهما وجود مسبق، وأيضا قوله تعالى في سورة الزّمر؛ « ويخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلقٍ في ظلماتٍ ثلاثٍ » [8]، فالله عز وجل في هذه الآيّة هو الموجد والمبدع الأول الذي أحدث شيئا معدومًا لم يكن له وجود مسبق كما أشرنا في الآيّة التي سبقتها- فسبحان الله أحسن الخالقين- .

ويمكن اعتبار الخلق مجموعة من القواعد والصّفات التي تحدِّد للشيء ماهيته وصفته من طرف خالق وفي هذا المعنى أيضا - تقدير الشّيء - يقول الأزهري:« وفلانٌ خليقٌ بكذا، أي جديرٌ به، وقد خُلقَ لذلك بالضّم، كأنّه ممن يقدر فيه ذلك وتُرى فيه مخائله » [9]. فهنا تكون اللفظة دالة على الصّفات

الباطنة والكامنة في النّفس البشريّة والتي اكتسبها الإنسان وأصبحت كأنها خُلقت معه.

« والخلْقُ والخُلُقُ في الأصل واحد، كالشّرب والشّربِ، والصّرمِ والصّرمِ، لكن خُصّ الخلْقُ بالهيئات والأشكال والصّور المدركةِ بالبصر، وخُصّ الخُلُقُ بالقوى والسّجايا المدركة بالبصيرة » [10]، فالخلْقُ والخُلُقُ إذا عبارتان تستعملان مع حيث يراد بالأولى مجمل الصّور الظّاهرة التي نراها بالعين المجردة أمّا الثّانيّة فيراد بها الأشياء والصّور الباطنة التي لا نراها بأعيننا وإنّما ندركها بأنفسنا وعقلنا سواء كان ذلك خيرا أو شرا فإن قيل مثلا هذا الشّخص حسنُ الخلْق والخُلُق فإنّ المراد بذلك هو جمال شكله ونفسه أيضا أي ظاهره وباطنه.

2.2. اصطلاحا: يوجد العديد من الأقوال والتعريفات التي اهتمت بالأخلاق وحددت ماهيتها وموضوعها على مرِّ العصور قديما وحديثا، حيث اهتم بموضوع الأخلاق الكثير من الفلاسفة والمفكرين، سواء من الغرب أم من العرب المسلمين حيث نراهم يخصصون فصولا ومباحث واسعة في تحديد ماهيّة الأخلاق وموضوعها وهدفها وغايتها...الخ.

فقد قيل بأنّها « حالة للنفس داعيّة لها إلى أفعالها من غير فكر ولا رويّة وهذه الحالة تنقسم إلى قسمين منها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب، ويهيج من أقل سبب، ومنها ما يكون مستفادًا بالعادة والتدرب وربما كان مبدؤه بالرّؤيّة والفكر ثم يستمر عليه أوّلا فأوّلا حتى يصير ملكة وخلقا ... » [11]، أي أنّ الأخلاق هي حالة للنفس تصدر عنها الأفعال بكل سهولة ويسر من غير تكلف زائد، وبهذا يمكن اعتبار جميع الأفعال الغير راسخة في الإنسان ليست بأخلاق حيث مثلا نصادف غضب الحليم فجأة أو جبن الشّجاع فذلك يدخل تحت التخلق أو التكلف لما لا تنطوي عليه نفسيته مثلا، لهذا فهي ليست صفات راسخة متأصلة في أصحابها وإنما صدرت

عن أصحابها صدفة أو بعسر وتكلف، ويقول 'صاحب كشاف اصطلاحات الفنون' « الأخلاق في عرف العلماء، ملكة تصدرُ بها عن النّفس الأفعال بسهولة من غير قدم فكر ورويّة وتكلف، فغير الرّاسخ من صفات النّفس كغضب الحليم لا يكون خلقًا وكذا الرّاسخ الذي يكون مبدأ للأفعال النّفسيّة بعسر وتأمل كالبخيل إذا حاول الكرم والكريم إذا قصد بإعطائه الشّهرة » [12]

ويضيف 'الطّاهر بن عاشور' في هذا السّياق قوله: « والخلق في اصطلاح الحكماء: ملكة (أي كيفيّة راسخة في النّفس أي متمكنة من الفكر) تصدر بها عن النّفس أفعال صاحبها بدون تأمل، فخلق المرء مجموعة غرائز(أي طبائع نفسيّة) مؤتلفة من انطباع فكري: إمّا كسبيّ ناشئ عن تمرن الفكر عليه وتقلّده أياه لاستحسانه إياه عن تجربة نفعه أو عن تقليد ما يشاهده من بواعث محبة ما شاهد...فإن استقر وتمكن من النّفس صار سجيّة له يجري أعماله على ما تمليه عليه وتأمره به نفسه بحيث لا يستطيع ترك العمل بمقتضاها » [13]، فهذه التعريفات السّالفة تتفق في أن الأخلاق تصدر عن النّفس بسهولة ويسر دون أيما تكلف، كما تتفق في مصدر هاته الأخلاق والسّجايا إذ هناك ما يكون منها في طبيعة النّفس وفطرتها التي جبالت بها، أو ما يكون منها مكتسبا عن طريق العادة أو الميول أو التقليد الذي يجعل الصّفة تتأصل في صاحبها حتى التصير سجيّة طبيعيّة تقوم بها النّفس بعفويّة ولا تترك العمل بمقتضاها أبدا فالمقصود هنا هو جميع السّجايا والصّفات الخلقيّة التي لا يمكن لها أن تتغير بسهولة واضحة.

« وقد يطلق لفظ الأخلاق على جميع الأفعال الصّادرة عن النّفس محمودة كانت أم مذمومة، فتقول فلان كريم الأخلاق، أو سيء الأخلاق، وإذا أطلق على الأفعال المحمودة فقط دل على الأدب لأنّ الأدب لا يطلق إلاّ على المحمود من الخصال » [14]، فالأخلاق إذن تطلق على جميع الأفعال الصّادرة عن النّفس

الفاضلة منها والمنحطة، الخيرة والشّريرة، الحسنة والقبيحة، ففي محكم التنزيل قوله تعالى حين خاطب رسوله الكريم وأراد أن يصور لنا صفة خلقه وأفعاله قال:« وإنّك لعلى خلقٍ عظيم » [15] أي أنت يا محمّد لعلى أدب عظيم من الصّفات الحسنة والأخلاق الرّفيعة.

وتطلق لفظة "خليق" على وزن " فعيل" على الصّفات الطّبيعيّة في المرء التي تولد معه أو تتأصل فيه وتكون من طبعه، كما قال الشّاعر 'زهير بن أبي سلمى' [16] :[الطّويل]

ومهما تكن عند امرئ من خليقة

وإن خالها تُخفى على النّاسِ تُعلمِ

فالخليقة هنا يريد بها الشّاعر زهير مجمل الأخلاق أو الصّفات التي تكون طبيعة في المرء ومن فطرته وسليقته، أو على الأقل قل هي الصّفة الرّاسخة فيه والمفطور عليها فتميزه عن غيره ويصعب التخلي عنها بسهوله أو حتى إخفاؤها وعدم إظهارها.

كما أنّه هناك « فكرتان يتحدد بهما معنى 'الخلق' وجمعه 'أخلاق'، الأولى الرّسوخ بمعنى الثّبات والدّوام والثّانيّة التلقائيّة (هيئة راسخة من غير تكلف) والملاحظ أن الخلق بهذا غير السّلوك، فهو ملكة أو هيئة في النّفس تصدر عنها الأفعال: فهي منبع السّلوك وهذا شيء لابد من استحضاره لدراسة النّصوص القديمة... فالسّلوك في الحقل الثّقافي العربي القديم هو ممارسة الفعل وليس الفعل ذاته... فالكرم خلق للنفس أمّا إكرام هذا الضّيف أو ذاك فهو سلوك والفرق هو أنّ الكرم صفة راسخة في النّفس، أمّا سلوك مسلك الكريم فهو فعل صادر عن تلك الصّفة » [17].

وما يمكن استنتاجه في الأخير أنّ لفظة 'الخلق' وجمعها 'الأخلاق' قد تأتي للدلالة على الهيئة الموجودة في النّفس والتي تعطينا أفعالا دون رويّة أو فكر، وهذا

يتوافق مع ما نسميه الفطرة والطّبع والسّجيّة "caractère"، أو تأتي للدلالة على الحالة المكتسبة بالعادة أو التقليد والممارسة حتى يصير الإنسان خليقا بها فتصبح من مزاجه وطبعه، كما أنّها قد تأتي مقرونة بصفة حسن أو سيء للدلالة على الهيئة الرّاسخة في الإنسان إن كانت حسنة أم سيئة.

3. مظاهر تجلي بعض القيم الأخلاقيّة في شعر عروة بن الورد:

1.3. الجود والكرم: إنّ شعر الصّعاليك حافل بنماذج حيّة لصورة الكرم عندهم والتي تعكس شخصيات متشبعة بمبادئ أخلاقيّة وإنسانيّة عاليّة تلغي جزئيا الحكم على الحقبة الجاهليّة بالتخلف الفكري وحتى الحضاري « فكما معلوم أنّ لفظ الجاهليّة الذي كان السّبب في خطأ تلك الأحكام هو لفظ ديني سياسي يعني الجهل بالدّين وليس الجهل ضد العلم، إنّه لفظ أطلقه الإسلام على الحقبة السّالفة عنه ... بل العكس هو الصّحيح فلقد أنجبت هذه البيئة رجالا كانوا قمّة في الإنسانيّة، ورهافة الحس، وحسن الخلق... » [18]، والشّعراء الصّعاليك نجدهم خير من يجسد هذه الرّؤيّة وعلى رأسهم عروة بن الورد، فمن خلال بعض أشعاره تتضح الصّورة أكثر وتعكس لنا نبله وكرمه، فبالرّغم من شخصيته الاندفاعيّة كباقي الصّعاليك وتمرده عن قبيالته أيضا إلاّ أنّنا نجده يتميز بحس مرهف ونبل اجتماعي إنساني سامي يجسد فيه قيمة المروءة العربيّة وفطرتها الحسنة، يقول عروة بن الورد [19]: [الطّويل].

إنِّـــي امـــرؤ عـــافي إنـــائي شـــركةٌ
وأنـــت امـــرؤٌ عـــافي إنائـــكَ واحـــدُ
أتهـــزأ منّـــي أن سمنـــتَ وأن تـــرى
بـــوجهي شـــحوبَ الحـــقِّ والحـــقُّ جاهـــدُ
أقسِّـــمُ جســـمي في جســـومٍ كـــثيرةٍ
وأحســـو قـــراَح المـــاءِ، والمـــاءُ بـــاردُ

لعلّ هذه الأبيات هي التي خلدت 'عروة بن الورد' وجعالته مثالا يضرب في الإنسانيّة والبذل، فقد جاء في الأغاني أنّ الخليفة عبد الملك بن مروان قال عندما سمع هذه الأبيات « ما يسرّني أنّ أحدًا من العرب ممّن ولدني لم يلدني إلاّ عروة » [20]، فهذه الأبيات لا يوجد ما أوضح منها في الدّلالة والكشف عن طبيعة شخصيّة عروة بن الورد الباحثة عن العدل الاجتماعي، ومحاولة إنصاف الفقراء ومساعدتهم بالتضامن والتكافل معهم، وهذا كله هو انعكاس لشخصيته النّبيلة ونسبه الأصيل، لأنّه لا يترك فقيرا ولا صعلوكًا إلاّ وأعانه وتصدق عليه بما يملك من مال وطعام لأنّ هذه النّزعة لا نجدها إلاّ عند عروة بن الورد.

والشّيء الجميل في شخصيّة عروة أنّ كرمه وجوده على الآخرين لم يكن بغيّة حاجة يبتغيها، أو مطمع يسيل لعابه، وإنّما ذاك هو أدبه مع الغير وأخلاقه العاليّة التي فُطر عليها مثل قوله [21]:

أقسِّم جسمي في جسومٍ كثيرةٍ
وأحسو قراحَ الماءِ والماء باردُ

كما أنّ صورة الجود والكرم المتعلقين بالضّيافة وحسن الاستقبال نجدها أوضح ما تكون عند 'عروة بن الورد' الذي كان يقري الضّيف ويحسن ضيافته والاهتمام به كذلك إذ يقول في ذلك [22]: [الطّويل].

فراشي فراشُ الضّيفِ والبيتُ بيتُه
ولم يُلهني عنه غزالٌ مقنّعُ
أحدّثُه إن الحديث من القرى
وتعلمُ نفسي أنه سوفَ يهجعُ

ففي هذين البيتين تتجسد لنا شخصيّة عروة الحقيقيّة في إكرام الضّيف والاعتناء به، وتوفير له كل سبل الرّاحة اللازمة، لهذا نراه يجعل من فراشه فراش الضّيف، لا تهمّه نفسه بقدر ما تهمه ضيافة من يطرق بابه وكيف يساعده ويقوم بأمره على أحسن وجه.

ومن يتأمل البيتين ويمعن عميقا في معناهما العميق يلمس نوعا آخر من الكلام ينضاف إلى كرم عروة المادي ألاّ وهو الكرم المعنوي حيث نرى الشّاعر يهتم بضيفه على أكمل صورة، بالحديث الحلو مع ضيفه كي يريحه ويجعله يهجع في غفوة من السّكينة والرّاحة، كما أنّه لا ينشغل عن ضيفه بشاغلة حتى لو كانت زوجته الجميلة التي نرى الشّاعر يُكنّي عنها بالغزال المقنع، ويقول أيضا [2 3]: [الطّويل].

سَـــلي الطّـــارقَ المعتـــزَّ يـــا أمّ مالـــكِ

إذا مـــا أتـــانيْ بـــين قـــدْرِي ومجْـــزَري

أيُســـــفِرُ وجهـــــي، إنّـــــه أوّلُ القـــــرى

وأبـــــذُل معـــــروفي لـــــه دون مُنكـــــرِ

فالكلامُ هنا موجه من الشّاعر لزوجته التي يبدو أنّها عهدت منه كرمًا وجودا في كل الأوقات نحو كل السّائلين والواقفين عند الباب في كل وقت ممن يطلبون الإعانة والمساعدة، فعروة يستقبل من يطرق بابه دون تقصير منه أو تحقير الذي قد يسبب حرجا لهؤلاء السّائلين الذين كانت ظاهرتهم شائعة في العصر الجاهلي، فقد بحث الفقراء والمحتاجون عن مأوى وطعام لدى الأجواد في العصر الجاهلي، وكانت مساعدتهم تعتبر واجبًا أخلاقيا، حيث أن إنّ الباحث الحذق يستطيع أن يميز بين نوعين من الفقراء في ذاك العصر، الأولى تشكّل طائفة الفقراء العاديين الذين يكونون في كل زمان ومكان، أمّا الطّائفة الثّانيّة فتتكون من النّاس المحتاجين الذين يسألون النّاس المساعدة بطريقة مباشرة

وصورة التضامن مع الفقراء ومساعدتهم أشد ما نجدها عند هؤلاء الشّعراء الصّعاليك، كما يضيف الشّاعر قوله [24]: [الطّويل].

قُعَيدُك عمرَ الله هل تعلمين
كريمًا، إذا اسوَدَّ الأنامل أزهرَا
صبُورًا على رزءِ الموالي وحافظًا
لِعرضي حتى يُؤكَل النّبتُ أخضرَا
أقبُّ ومخماصُ الشّتاء مرزَّأً
إذا اغبرَّ أولادُ الأذلّةِ أسفَرَا

فهنا الشّاعر يصور لنا سخاءه وجوده مع الفقراء الذين يضيق بهم حالهم فيأتونه في فصل الشّتاء وقد اسودّت أنامل النّاس من شدة وقد النّار، وعروة مازال حينها يقري الضّيف ويساعد المحتاجين الضّعفاء فنراه يؤثر الأضياف في حين يبقى هو ضامر البطن لا يهتم لحاله بقدر ما يهتم لغيره من الضّعفاء.

ونجد عروة في مقام آخر يصور لنا حاله مع الضّعفاء بقوله [25]: [الطّويل].

إذا قالت جاء الغنى حالَ دونه
أبو صبيّة يشكُو المفاقرَ أعجفُ
له خلّةٌ لا يدخلُ الحقُّ دونها
كريمٌ أصابته خطوبٌ تجرِّفُ

فمن خلال البيتين يتضح لنا أنّ النّاس يقصدون عروة دون سواه في حالة الجدب والقحط، وفي حالة فقدان هؤلاء الضّعفاء ممتلكاتهم وهلاك مالهم أيضا، وذلك لسماحته وخلقه الإنساني الرّفيع الذي يحنّ ويتضامن مع كل فقير ومحتاج، ما يجعل الغِنى لا يلحق شاعرنا كغيره من النّاس لأنّ ماله دائما في خدمة الضّعفاء يقسِّمه عليهم، ويغيث من يستغيث به في كل مرّة، فكما جاء

في "الأغاني" أنّ أناسًا من عبس كلما أصابتهم السّنة يأتون 'عروة' فيجلسون أمام بيته ويبدأون في الصّراخ قائلين يا أبا الصّعاليك أغثنا، ثم بعد ذلك يخرج بهم عروة غازيا بحثا عن غنيمة يسدّون بها حاجتهم » [26]، فهم بهذا يتكلون على زاد غيرهم وكأنّ مبدأهم في الحياة هو مقولة « خير المال عين ساهرة لعين نائمة »27 .

ويقول أيضا [27]:

أفي نـــــــابٍ منحناهـــــــا فقـــــــيرًا

لـــــه بطنابنـــــا طَنَـــــبٌ مُصـــــيتُ

وفضـــــلَةِ سمنـــــةٍ ذهبـــــتْ إليـــــهِ

وأكثَـــــرُ حقِّـــــه مـــــا لا يفـــــوتُ

فهنا الشّاعر بسخائه وعطائه يدافع عن تصرفه وكرمه الزّائد الذي جلب له اللوم والعذل، فهو يرجو من عاذالته أن تتوقف، كما أنّه يعتبر أنّ هذا التفضل والتكرم على المحتاج بمنحه الإبل المسنة وقطعة السّمن لا يعد إطلاقا قياما بالواجب على أكمل وجه لأنّ الفقير يحتاج أكثر من ذلك من التضامن والسّند كما أنّ فلسفة 'عروة' في البذل والعطاء إنّما تغطّي جانبا واسعًا من جوانب مروءته وكمال فروسيته يقول [28]:

فـــلا أتـــركُ الإخـــوان مـــا عشـــتُ للـــرّدى

كمـــا أنّـــه لا يـــترُكُ المـــاء شـــاربه

فأيّ صورة بليغة تلك التي تصوّر عروة بأصحابه كالظّمآن ومائه، كما أن الشّاعر هنا أيضا يجعل الفقراء والمحرومين عائالته وإخوانه، وهذا لا شك أنّه نوع من أنواع التعويض النّفسي، لأنّه كما هو معروف عن عروة بن الورد بأنّه قد افتقد الحنان الأبوي في صغره ولم يجد عائلة توفر له ذلك الحنان الأسري.

ومع الشّاعر عروة دائما حيث نجده يرسم لنا اندفاعه نحو عالمه الجديد الذي يبحث عنه وغايته السّاميّة التي يسعى إليها، حيث يفضل الموت على تلك الحياة الجافة الغير هادفة بقوله [29]:

دعـــــيني أطـــــوِّفُ في الـــــبلاد لعلّـــــني
أفيـــدُ غنًـــى، فيـــه لـــذي الحـــقّ محمـــلُ
ألـــــيسَ عظيمًـــــا أن تلـــــمَّ ملمّـــــةٌ
ولـــــيس علينَـــــا في الحقـــــوقِ معـــــوِّلُ
فـــإن نحـــنُ لم نملـــك دفاعًـــا بحـــادثٍ
تلـــمُّ بـــه الأيـــامُ فـــالموتُ أجمـــلُ

فالشّاعر يخاطب زوجته بأن تتركه وغايته المتمثلة في الحصول على المال والطّعام لإعانة المحتاجين وقت الشّدّة، لأنه يري بأنه من العار أن تأتي نزلة من النّوازل ولا يجد المعوّل والمتكل على عروة ما يسدُّ به حاجته كما أنه يفضّل الموت على هاته الحالة، وهي من أحسن صور الجود والكرم، وفي هذه الحالة « يصبحُ الموتُ احتمالاً، واحتمالًا جميلا في حالة معينة هي حالة الإخفاق في إعطاء مصير الإنسان عن طريق جعل وجوده الفردي منفذا وملاذا ودرعا للآخرين، وما من قطة أخرى في الشّعر الجاهلي يبدو فيها الموت أجمل ممّا هو عليه هنا » [30].

وبهذا المبدأ القوي والطّموح يصنع لنا الشّاعر أكبر لوحة معبرة عن قيمة الجود والكرم والتضامن الاجتماعي، فنجد البعض يستغرب أن تكون مثل هذه الصّفات الحميدة من شيم بعض الصّعاليك لأنّ الشّائع عن هذه الطّائفة أنّها مجموعة من اللّصوص وقطاع الطّرق ممن يسلبون النّاس ويتلصصون عليهم في حين أنّ هذه هي الحقيقة أو جزء من الحقيقة الموجودة فعلا والتي تمثلها شخصيّة عروة بن الورد.

2.3. الشّجاعة والإقدام: لقد افتخر عروة بن الورد كباقي الشّعراء الصّعاليك بشجاعته وبسالته، وحتى قوة بطشه بالأعداء وسرعة إقدامه لمواجهة الصّعاب، ذلك أنّه صوّر بعضا من تلك المواقف الشّجاعة في شعره وتغنى ببعض البطولات الفرديّة وحتى الجماعيّة، كيف لا وهو صعلوك ليس له من ينصره سوى شجاعته وقوته، فكيف لا وهو يكون كذلك وهو لا يورث غير السّيف والدّرع والمغفر والتي ترمز للشجاعة والفروسيّة، يقول عروة بن الورد: [31] [الطّويل].

وذي أمـــلٍ يرجـــو تُراثـــي وإنّ مـــا
يصـــيرُ لـــه منـــه غـــدًا قليـــلُ
ومـــاليَ مـــالٌ غـــير درعٍ ومغفَـــرٍ
وأبـــيضُ مـــن مـــاءِ الحديـــدِ صـــقيلُ
وأسمـــرُ خطّـــيّ القنـــاةِ مثقّـــفٌ
وأجـــردُ عريـــانُ السّـــراةِ طويـــلُ

فأبو الصّعاليك هنا لا يملك ما سيتركه لوارثيه سوى السّيف والدّرع والمغفر والرّمح والحصان وكلها أدوات تستخدم في الحروب وحالات الدّفاع عن النّفس، فعروة يعتمد على شجاعته وقوة بأسه في مجابهة صعاب الحياة لهذا لا يورث مالا ولا ثروة، كما أنّ المبدأ القوي الذي آمن به الشّاعر في حياته هو مبدأ التسليم بحتميّة الموت وفق الأجل المحدد، يقول: [32] [الطّويل].

أرى أمّ حسّـــان الغـــداة تلـــومُني
تخـــوِّفني الأعـــداء والـــنّفس أخـــوفُ
لعـــلّ الـــذي خوّفتنـــا مـــن أمامنـــا
يُصـــادفُه في أهلـــه المتخلِّـــفُ

فالشّاعر هنا مع عاذالته يدافع عن موقفه بكلمات قليلة تحملُ في طياتها فلسفة عميقة تنمّ عن خبر ورؤيّة سديدة لمعنى الحياة، فالشّاعر قد سلّم بحتميّة الموت لأنّ الموت يلحقُ الصّعلوك الذي يخاطر بنفسه كما يلحق أيضا الجبان الذي يبقى بين أهله خوفا وجبنًا من الخروج لهذا اختار عروة الخروج والمخاطرة دون الاكتراث للعواقب أو الأخطار التي قد تواجهه في طريقه، يقول 'عروة': [33] [الطّويل].

أتجعلُ إقدامي إذا الخيلُ أحجَمَتْ
وكرّي إذا لم يمنَعِ الدّبرَ مانعُ
سواءً ومن لا يُقدمُ المهرَ في الوَغى
ومن دُبرُهُ عند الهزاهزِ ضائعُ
إذا قيلَ يابنَ الورد أقدم إلى الوغى
أجَبْتُ فلاقاني كميّ مصارعُ
بكفّي عن المأثور كالملحِ لونُهُ
حديثٌ كإخلاصِ الذّكورةِ قاطعُ
فأتركُه بالقاع رهنًا ببلدةٍ
تُعاوره فيها الضّباعُ الخوامعُ
فلا أنا ممّا جرّت الحربُ مشتكٍ
ولا أنا ممّا أحدثَ الدّهرُ جازعُ

ففي هذه المقطوعة يفتخرُ الشّاعر بشجاعته وإقدامه التلبيّة النّداء إلى ساحة الوغى حين يُطلب منه ذلك، كما نراه يرفض مقارنته بمن لا يهرع ولا يُقبل إلى القتال بسرعة، فالشّاعر كمي مقارعٌ ينتظر الإشارة على استعداد التلبيّة النّداء غير مشتكٍ أو خائف من النّتائج والعواقب الوخيمة، فكما جاء في العقد الفريد أنّه « قيل لعنترة الفوارس: صف لنا الحرب، فقال: أوّلها شكوى، وأوسطها نجوى

وآخرها بلوى » [34] فلهذا نرى الشّعراء يفتخرون بشجاعتهم المتمثلة في الحضور والإقبال على الحروب التي حمي وطيسها بكل رضا وافتخار دفاعا عن السّمعة والشّرف والعرض والمال.

وإن كانت الصّورة في الأبيات السّابقة واضحة جليّة توضح حالة افتخار الشّاعر واعتزازه بشجاعته وإقدامه فإنّها أوضح كذلك لصورة مناقضة تمثل حالة الذّل والخوف من الشّدائد والحروب وحتى في حالات القعود عن الغزو فالشّاعر كثيرا ما كان شعره يحمل ويسوق لنا صورة عكسيّة لصورة الصّعلوك البطل وهي حالة ذاك الصّعلوك الخامل الذي يبقى خلف أدبار البيوت متقاعسا يقول [35]: [الطّويل].

لحَا اللّه صعلوكًا إذا جنَّ ليلُه

مصافي المشاش آلفًا كلّ مجزرِ

فما أقبح هذه الصّورة التي يكون عليها ذاك الصّعلوك الذي يخاف المواجهة والمغامرة، حيث يكتفي بالعيش تحت رحمة الآخرين، وهذا المعني أو هذه الصّورة نجدها عند حاتم الطّائي في قوله [36]: [الطّويل].

ولن يكسِبَ الصّعلوكُ حمدًا ولا غنًى

إذا هو لم يركب من الأمرِ معظمًا

لحى اللّه صعلوكًا، مُنَاه وهمّه

من العيشِ، أن يلقى لبوسًا ومطعمًا

وللّه صعلوكٌ يُساور همه

ويمضي على الأحداث والدّهر مُقدِما

فالمعنى الذي ذهب إليه 'عروة' نجده نفسه تقريبا عند 'حاتم الطّائي' حيث تطرّق إليه هو الآخر بهذه الأبيات والتي ينبذ فيها الصّعلوك اللئيم الذي يعيش

خاملا خائفاً من ركب عظائِم الأمور وشدائدها فهو يكتفي بما يُجاد عليه به لهذا قال عنه "حاتم" أنّه لا يكسب حمدا ولا غنى ببقائه وخموله وكسله.

والنّموذج الذي يريد عروة أن يقدمه عن الصّعلوك الشّجاع هو ما يجب أن يكون فعلاً، وذلك بالنّظر إلى طبيعة الحياة في العصر الجاهلي وطبيعة النّظام الاجتماعي الطّبقي، حيث يتوجب على الفقراء كعروة أن يتمتعوا بالشّجاعة وقوة الإرادة وغيرها من الصّفات التي تمكنهم من الصّمود في وجه من يتمتعون بالسّيادةِ والغنى والجاه، ويؤكد عروة إقدامه للمعارك وكثرة خوضه للوقائع والأهوال بقوله [37]: [الطّويل].

فمـــا شـــابَ رأسِـــي مـــن ســـنين تتابعـــت

طـــــوالٍ ولكـــــن شـــــيّبته الوقـــــائعُ

فشيب رأس الشّاعر لم يكن من السّنين الطّوال التي عاشها كالآخرين، ولكن بفعل الوقائع الجسام التي خاضها الشّاعر وبكثرة إقدامه وإقباله عليها، فحياة الشّاعر لم تعرف السّكينة ولا الهدوء، وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدل على شخصيته القويّة وشجاعته الكبيرة التي جعالت منه فارسا قويا وشجاعا.

3.3. العفة وعزة النّفس:

يقول عروة بن الورد: [38]

فســـــر في بـــــلادِ اللّـــــه والـــــتمسِ الغِنـــــى

تعـــــشْ ذا يســـــارٍ أو تمـــــوتَ فتعـــــذرَا

فسلاح الشّاعر إذا إنما حماسه وشجاعته وعزة نفسه وعزيمته الصّادقة التي لا تخور أما المصائب لهذا فهو دائما ما يدعو إلى الضّرب في الأرض والبحث عن الرّزق بدل البقاء في الدّيار دون سعي أو جهد وانتظار من يتصدق ويجود عليه لأنّ ذلك بالنّسبة له ذل وعار و لا يليق بكرامة الفارس وكبريائه فرغبة عروة في الخروج هنا هي أن يقي نفسه وأهله ذل الحاجة وذل المقام الذي قد يلحقه وأهله.

ونجد الكثير من المعاني التي تشير إلى عفة هؤلاء الصّعاليك وكبريائهم وعنفوانهم أيضا، وذلك من خلال دعواته المتواصلة نحو رفض الذّل والهوان والاعتماد على مساعدات النّاس ورحمتهم بالبقاء أمام فنائهم وأدبار بيوتهم فعروة نجده يدعو في كل مرة إلى العيش الكريم ورفض كل ما يذلّ ويهين صاحبه بقوله [39]:

إذا آذاك مالـــــــــــكُ فامتهنـــــــــــهُ

لجاديّـــــــة وإن قـــــــرعَ المـــــــراحُ

وإن أخنَـــــى عليـــــك، فلـــــم تجـــــده

فنبـــــتُ الأرضِ والمـــــاءُ القـــــراحُ

فـــــرغمُ العـــــيشِ إلـــــفُ فنـــــاء قـــــومٍ

وإن آســـــوك والمـــــوتُ الـــــرّواحُ

فالشّاعر عروة في كل مرة يدعو إلى فلسفته الواضحة بالاعتماد على النّفس ورفض الذّل وكل ما من شأنه أن يذلَّ وينقصَ من كرامة المرء مهما كان والإنسان الذي يعيشُ مرغما هو من يعتاد ويقصد فناء النّاس حتى وإن وجد عزاء وإعانة منهم، والإنسان العفيف الكريم الأنف يجد في الطّبيعة- ولاشك- الملاذ الحقيقي والملجأ الطّبيعي للنفس الأبيّة، لأنّه في الأخير تبقى هذه رؤيّة الشّاعر عروة وقناعته، فعزة النّفس ورفض الذّل كمبدأ وقيمة في الحياة يتجسّد فقط عند أصحاب النّفوس القويّة مثل ' عروة ' بالذّات فهو يعتبر مثالا حيًا للفارس البطل بسجاياه الرّفيعة وأخلاقه النّبيلة وشخصيته التواقة إلى الحريّة دائما « فمن دواعي السّرور أنّنا لا نحتاج إلى جدل كي نثبت بأنّ كرامة الإنسان إنّما تعود إلى امتلاكه للحريّة ... فما قدر يمتلكه إنّما يكمن في قدرة الفرد على أن يختار لنفسه » [40]، وهذا الشّاعر الذي نتحدث عنه هو دائم الدّعوة إلى الخروج والبحث عن الحريّة وعن الحياة الكريمة، مختارا لنفسه رؤيّة

منفتحة على العالم والوجود الخارجي أجمع، فقوله في كل مرة "ذريني ونفسي" "دعيني أسعى"، "أقلّي علي اللّوم" ...الخ كل هذه الصّيغ التي استخدمها الشّاعر تدلّ على قوة الشّخصيّة المحبة للحريّة والرّافضة للقيود الاجتماعيّة والمترفعة عن الذّل والهوان أيضا.

4.3.السّعي من اجل الرّزق:

وبحكمنا هذا (السّعي والدّعوة إلى الكسب والتموّل) لسنا نعمم الموضوع على جل الصّعاليك أو ننزلهم منزلة واحدة في سعيهم الدّؤوب لكسب الرّزق بل كان فيهم الشّاذ الذي يبقى خلف أدبار البيوت فيتكل على غيره في تحصيل رزقه كما أشار عروة بن الورد في قوله [41]:

لحـــى اللّـــهُ صـــعلوكًا إذا جـــنّ ليلُـــه
مصـــافِي المشـــاشِ آلفًـــا كـــلّ مجـــزرِ
يعُـــدُّ الغنَـــى مـــن دهـــرِهِ كـــلّ ليلـــةٍ
أصـــابَ قِراهـــا مـــن صـــديقٍ ميسَّـــرِ
ينـــامُ عِشـــاءً ثـــمّ يُصـــبحُ ناعسًـــا
يحـــثُّ الحصـــى عـــن جنبـــه المتعفِّـــرِ
قليـــلُ التمـــاسِ الـــزّادِ إلاّ لنفسِـــه
إذا هـــو أمســـى كـــالعريشِ المجـــوّرِ
يُعـــينُ نســـاءَ الحـــيِّ، مـــا يســـتعنَّهُ
ويمسِـــي طليحًـــا، كـــالبعيرِ المحسَّـــرِ

فالشّاعر هنا يذكر لنا حالة ذلك الصّعلوك الذي يقعد عن الكَسبِ والغاراتِ، بحيثُ يقنع بغنى بطنه فقط ولا يبالي بما حوله بعدها، فشبهه لنا بالبعير الضّعيف الذي يمسي طليحًا من شدة الإعياء وهذه الصّورة هي من أقبح

الصّور التي يكون عليها الصّعلوك، فحياته كلها خمول وكسل عن طلب العمل وطلب الرّزق وضعف كذلك في مواجهة الواقع ومجابهته

وها هو 'عروة بن الورد' يقدم لنا حاله وهو في صراعه مع زوجته التي تكثِرُ عليه من إلحاحها ومنعه من الغزو والخروج، لأنّ الشّاعر عروة بن الورد كان كثير الخروج والبحث عن الرّزق والمخاطرة يقول:42

ذريـــــني أطـــــوِّفُ في الـــــبلادؤ لعلّـــــني

أخليـــكِ أو أغنيـــكِ عـــن ســـوءِ محضَـــرِ

فمن خلال الفعل "ذريني" الذي استخدمه الشّاعر يتبين لنا أنّ الشّاعر يعاني ألما حقيقاً من طرف عاذالته التي تلح في منعه في كل مرة، كما نفهم أيضا بأنّ عروة كثير الخروج والسّعي في طلب الرّزق لأنّ شاعرنا يقوم بتقديم يد العون للضعفاء والفقراء دائما، ويمكنه أيضا حينها من تحقيق حاجته وحاجة عائالته بكفهم عن الجلوس خلف أدبار البيوت، فيقول [42]:

فـــــإن فـــــاز ســـــهمٌ للمنيّـــــة لم أكـــــن

جزوعًـــا، وهـــل عـــن ذاك متـــأخّرِ؟

وإن فـــاز ســـهمي كفّكُـــم عـــن مقاعـــد

لكـــم خلَـــف أدبـــار البيـــوتِ، ومنظـــرِ

فعروة نراه غير مبالٍ بما يصادفه عند خروجه، بحيث لا مانع يمنعه من تأخير خروجه وسعيه التحقيق آماله ومبادئه، فحتى قضيّة الموت بالنّسبة لعروة هي مسألة أجل محدد ومصير محتوم فلا شيء يجعله يجزع من خطر الأهوال التي قد تصادفه، كما أنّ هدف الشّاعر وغايته من السّعي أن يتمكن من تحقيق حاجته وحاجة عائالته التي هي مسؤوليّة بالنّسبة إليه تجعله بعيدًا من أن يعيش عالة على الآخرين أي خلف أدبار البيوت على حد تعبيره.

وينطلق الشّاعر من مبدأ قوي يجعله دائم الدّعوة إلى الكسب والتمول ألا وهو الإحساس بالفقر حيث نجد أنّ الشّعراء الصّعاليك يلازمهم شعور حاد بالفقر يختلف عن الفقر في حد ذاته، فالاختلاف الواضح بين الفقير والغني داخل تلك المجتمعات القبيلة هو من يصنع ذلك الفارق النّفسي لهذا « فالفرق كبير بين الفقر والإحساس به ممّا يترتب عليهما من آثارٍ في حياة صاحبيهما، وليس الفرقُ في الفقر وحده وإنّما في كل المعاني التي يمكنُ أن يترتب عليهما آثار اجتماعيّة فالثّورات على الظّلم مثلا ليس مصدرها الظّلم نفسه وإنّما مصدرها الإحساس بالظّلم » [43]، لهذا فعروة شديد الحرص على الدّعوة إلى التمول والكسب مادام شعار القبيلة هو "الغني يزداد غنى والفقير يزداد فقرا".

يقول عروة: [44]

إذا المـــــرء لم يطلـــــبْ معـــــاشً لنفسِـــــه
شـــكَا الفقـــرَ أو لامَ الصّـــديقَ فـــأكثرَا
وصـــــار علـــــى الأدنـــــينَ كـــــلاًّ وأوشـــــكتْ
صـــــلاةُ ذوي القربـــــى لـــــه أن تنكّـــــرَا
ومـــا طالـــبُ الحاجـــاتِ مـــن كـــلِّ وجهـــةٍ
مـــــن النّـــــاسِ إلاّ مـــــن أجـــــدّ وشمّـــــرَا
فسِـــــر في بـــــلادِ اللّـــــه والـــــتمسِ الغنـــــى
تعـــــشْ ذا يســـــارٍ أو تمـــــوتَ فتعـــــذرَا

فدعوة الشّاعر هنا هي الخروج والسّعي في طلب الرّزق بدل القعود والتقاعس عن الطّلب والمخاطرة والجد، لأنّ هذا يؤدي بالواحد إلى لوم الصّديق والإكثار من عتابه، فعروة هنا لديه الدّافع القوي للخروج والمخاطرة في سبيل الرّزق وأن يقي عائلته حاجة الفقر والجوع.

كما أنّه في هذه الأبيات بالذّات تجسد لنا فلسفة عروة في الحياة والتي تنصُّ على الضّرب في أرض الله وعدم المكوث دون سعي، فشكوى الفقر والاعتماد على الأقارب هي وجهة ستنقلب يوما على صاحبها وتفضحه وتتنكر له.

حيث نجد هذا المعنى يتكرر معنا في قول 'عروة بن الورد': [45]

أقيموا بني لبنى صدور ركَابكُم=فإنّ منايا النّفسِ خيرٌ من الهزلِ

فعروة بن الورد صاحب دعوة صريحة لقومه للاستعداد والخروج نحو الكسب والغزو وعدم البقاء دون سعي وكدّ، لأنّه حسب الشّاعر فإن طرق الموت وأنواعه التي قد تلحق الإنسان وتصادفه أفضل من فقر الرّجل وهزله.

وفي حياة عروة ودعوته الدّائمة إلى التطواف والسّعي نلمس بوضوح سعيه الدّائم وحرصه الشّديد على مواجهة عاذالته التي تلومه في كثرة خروجه المتكرر لغزواته وبحثه عن الرّزق، يقول عروة: [46]

دعـــــيني أطـــــوّف في الـــــبلاد لعلّـــــني

أقيـــدُ غنـــى، فيـــه لـــذا الحـــق محمـــل

فالهدف عند 'عروة' من كسب المال والزّاد هو أن يؤدي ما عليه من حقوق من إطعام الفقراء والمحتاجين الذين لا يملكون من يعيلهم أو يقوم بأمرهم، كما يجب عليه أن يؤدي حقوقا لا يستطيع تأديتها وهو في حالة الفقر، لأنّ الفقير شر النّاس وأهونهم كما يقول عروة:47

دعينِـــي للغنـــى أســـعى فـــإنّي

رأيـــتُ النّـــاس شـــرّهمُ الفقـــيرُ

وأبعـــدهم وأهـــونهم علـــيهم

وإن أمسَـــى لـــه حســـبٌ وخـــيرُ

ويقصـــيهِ النّـــدي وتزدريـــه

حليالتـــه وينهـــرُهُ الصّـــغيرُ

فهذه الأبيات تجسِّد لنا حقيقة مرارة الإحساس بالفقر الذي يحسّ به عروة جرّاء هذه الظّروف الاجتماعيّة القاهرة والتي تُنزِلُ الفقير أسفَل الدّرَكِ وتُعلي من قيمة الغني وتتجاوز عن أخطائه، وهذه الظّاهرة الاجتماعيّة وحدها كفيلة بدفع عروة دفعا نحو الكسب والتمول التجاوز هاته العقبة المنيعة التي فرضها المجتمع في وجه الفقراء الذين فضحهم فقرهم، كما يضيف الشّاعر: [47]

المـــــالُ فيـــــه مهابـــــةٌ وتجلّـــــةٌ
والفقـــــرُ فيـــــه مذلّـــــةٌ وفضـــــوحُ

فالاختلاف الموجود بين الغني والفقير نراه قد تجاوز الفروقات الماديّة إلى ما هو جوهري يتمثل في الحالة المعنويّة الشّعوريّة التي يحسها كل واحد منها.

أمّا في بعض الأحيان فإنّنا نجد الزّوجة هي الدّافع القوي بالنّسبة للصعلوك محفزة أياه بإلحاحها عليه بالخروج والمخاطرة بغيّة الكسب والتمول والوقوف في وجه ذلك المجتمع المرير الذي يزدري ويقلل من شأن الفقير وقيمته كقول عروة: [48]

قالـــــت تُماضِـــــرُ إذ رأت مـــــالي خـــــوَى
وجفَـــــا الأقـــــاربَ فـــــالفؤادُ قـــــريحُ
مـــــالي رأيتُـــــكَ في النّـــــدي منكّسًـــــا
وصـــبًا، كأنّـــك في النّـــديّ نطـــيحُ
خـــاطر بنفســـكَ كـــي تصـــيبَ غنيمـــةً
إنّ القعـــودَ مـــع العيـــالِ قبـــيحُ

فالمخاطرة في هذه الحالة هي حتميّة وواجبة نظرًا إلى قانون المجتمع المسلّط فالسّعي وراء الرّزق والكسب من ضروريات الحياة التي لا غنى عنها في قاموس هؤلاء الصّعاليك، لهذا فزوجة الشّاعر تلح عليه للخروج بدل القعود مع العيال

والذي يزيد من حالهم حينها فما دام الأقارب قد ابتعدوا وتركوا البر والمساعدة فإنّ النّاس الأباعد حينها سيكونون أقرب للقطيعة من الوصل مادام الفقير فيهم ليس له سلطان ينصره.

4. خاتمة: لقد درس هذا البحث شعر "عروة بن الورد" من منظور إنساني أخلاقي يتناسب مع هذه الشّخصيّة الجاهليّة التي شكالت ومازالت تشكل ركنًا مهمًا في تاريخ الشّعر العربي القديم، لهذا كانت وقفتنا مع قطوف من شعره محاولين كشف أبعادها الأخلاقيّة والإنسانيّة، فهذا الشّاعر الذي يمثل زعيم طائفة الصّعاليك قد مثّل جديدا في زمانه وقد انعكس هذا على جمالته الشّعريّة حيث نلحظ بصورة جليّة تلك الصّور والنّماذج الأخلاقيّة التي زينت شعره وجعلته رمزا للإنسانيّة والأخلاقيّة بأتم معنى الكلمة.

كما أنّه بمجرّد الرّجوع إلى شعر عروة والمواضيع التي جاءت فيها مجموعته الشّعريّة فإننا نجدها كلها تحمل بعدا راقيا في محاولة تحقيق العدالة الاجتماعيّة والإسهام في تجسيد معنى الإنسانيّة والقيم الخلقيّة التي يجب أن يتحلى بها الفارس العربي في العصر الجاهلي في مواجهة تلك الضّغوطات النّفسيّة والاجتماعيّة التي أفرزها المجتمع القبلي في العصر الجاهلي خاصّة في وجه تلك الطّبقة المحرومة التي ينتمي إليها الشّاعر ممّا زاد من حجم الهوة والفراغ بين المجتمع (القبيلة) والشّاعر(طبقة الصّعاليك).

ويبقى في الأخير شعر "عروة بن الورد" إحدى اللوحات الفنيّة الرّاقيّة التي تصور ذلك الجانب الإيجابي من حياة العربي في ذلك العصر من سماحة وبذل وكرم وجود وشجاعة وعفة وغيرها من الصّفات التي تدل على أصالة العربي وطينته التي تعتبر إلى وقتنا الحاضر مرجعا مهمّا في رسم معالم القيم الخلقيّة والإنسانيّة الرّفيعة.

المصادر والمراجع: القرآن الكريم

1) ابن السّكيت: شرح ديوان عروة بن الورد العبسي، خزانة الكتب العربيّة، الجزائر، ط01 (د/ت).

2) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج03، مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلميّة، بيروت ط01 1983م.

3) ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، تح: حسين تميم، دار مكتبة الحياة لبنان ط02، 1989م.

4) ابن منظور: لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير، دار المعارف، القاهرة، ط01، (د/ت).

5) الأصفهاني: الأغاني، ج02، تح: أحمد الشّنقيطي، مطبعة التقدم، مصر، ط01 (د/ت).

6) التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون، تح: رفيق العجم وعلي دحرج، مكتبة لبنان لبنان ط01 1996م.

7) جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج01، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د/ط)، 1982م.

8) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج01، جامعة بغداد، ط02، 1996م.

9) الجوهري: الصّحاح، ج05، دار العلم للملايين، القاهرة، ط04، 1990م.

10) حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي. قضايا وفنون ونصوص، مؤسسة المختار القاهرة ط01، 2001م.

11) ديوانا عروة والسّموأل: تح: كرم البستاني، دار بيروت، بيروت، (د/ط)، (د/ت).

12) الرّاغب الأصفهاني:مفردات ألفاظ القرآن واشتقاقها، تح: صفوان عدنان الدّاودي، دار العلم بيروت،ط01، 1922م.

13) رالف بارتون بري: إنسانيّة الإنسان، تر: سلمى الخضراء الجيوسي، مكتبة المعاف بيروت (د/ط)، (د/ت).

14) زهير بن أبي سلمى: الدّيوان، تح: حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت، ط02، 2005م.

15) الطّاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج19، الدّار التونسيّة النّشر، تونس (د/ط) 1984م.

16) عبد الحليم حفني: شعر الصّعاليك منهجه وخصائصه، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة ط01، (د/ت).

17) عروة بن الورد: الدّيوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط01 (د/ت).

18) الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ج04، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة ط03 1979م.

19) كمال أبو ذيب: الرّؤى المقنعة نحو منهج بنوي في دراسة الشّعر الجاهلي، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، ط01، (د/ت.

المقالات:

1) صالح مفقودة: القيم الأخلاقيّة من خلال الشّعر الجاهلي، مجلة العلوم الإنسانيّة ع01، كليّة الآداب واللغات والعلوم الاجتماعيّة والعلوم الإنسانيّة، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2001.

2) محمد عابد الجابر: العقل الأخلاقي العربي (دراسة تحليليّة نقديّة لنظم القيم في الثّقافة العربيّة) مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط01، 2001م.

الهوامش:

1- حسني عبد الجليل يوسف: الأدب الجاهلي. قضايا وفنون ونصوص، مؤسسة المختار القاهرة ط01، 2001م، ص:37.

2- ابن السّكيت: شرح ديوان عروة بن الورد العبسي، خزانة الكتب العربيّة، الجزائر ط01، (د/ت) ص:13.

3- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج01، جامعة بغداد، ط02، 1996م ص: 165.

4- ابن منظور: لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير، دار المعارف، القاهرة، ط01، (د/ت) ص: 1245.

5- الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ج04، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة ط03 1979م ص: 221.

6- الرّاغب الأصفهاني:مفردات ألفاظ القرآن واشتقاقها، تح: صفوان عدنان الدّاودي، دار العلم بيروت،ط01، 1922م، ص: 296.

7- القرآن الكريم، سورة الأنعام، الآيّة01.

8- القرآن الكريم، سورة الزّمر، الآيّة: 06.

9- الجوهري: الصّحاح، ج05، دار العلم للملايين، القاهرة، ط04، 1990م، ص: 1471.

10- الرّاغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن واشتقاقها، ص: 297.

11- ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، تح: حسين تميم، دار مكتبة الحياة لبنان ط02 1989م، ص: 13.

12- التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون، تح: رفيق العجم وعلي دحرج، مكتبة لبنان لبنان ط01 1996م، ص: 762.

13- الطّاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، ج19، الدّار التونسيّة النّشر، تونس (د/ط) 1984م، ص: 172.

14- جميل صليبا : المعجم الفلسفي، ج01، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د/ط) 1982م، ص: 49.

15 - القرآن الكريم، سورة القلم، الآيّة: 04.

16- زهير بن أبي سلمى : الدّيوان، تح: حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت، ط02 2005م، ص: 70.

17- محمد عابد الجابر: العقل الأخلاقي العربي (دراسة تحليليّة نقديّة لنظم القيم في الثّقافة العربيّة) مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط01، 2001م، ص:33.

18- صالح مفقودة: القيم الأخلاقيّة من خلال الشّعر الجاهلي، مجلة العلوم الإنسانيّة ع01، كليّة الآداب واللغات والعلوم الاجتماعيّة والعلوم الإنسانيّة، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2001م، ص: 184.

19- عروة بن الورد: الدّيوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلميّة، بيروت ط01، (د/ت) ص: 61.

20- الأصفهاني: الأغاني، ج02، تح: أحمد الشّنقيطي، مطبعة التقدم، مصر، ط01 (د/ت)، 184.

21- عروة بن الورد: تح: أسماء أبو بكر محمد، الدّيوان، ص: 29.

22- ابن السّكيت: شرج ديوان عروة بن الورد، ص: 155.

23- عروة بن الورد: تح: أسماء أبو بكر محمد، الدّيوان، ص: 78.

24- المصدر نفسه، ص: 66.

25- ديوانا عروة والسّموأل: تح: كرم البستاني، دار بيروت، بيروت، (د/ط)، (د/ت)، ص: 52.

26- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني،ج02، ص: 187.

27- ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج03، مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلميّة، بيروت ط01 1983م ص: 45.

28- ابن السّكيت: شرح ديوان عروة بن الورد العبسي، ص: 164.

29- عروة بن الورد: تح: أسماء أبو بكر محمد، الدّيوان، ص: 48.

30- ابن السّكيت: شرح ديوان، عروة بن الورد، ص: 206.

31- كمال أبو ذيب: الرّؤى المقنعة نحو منهج بنوي في دراسة الشّعر الجاهلي، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ط01، (د/ت، ص: 589.

32- ابن السّكيت: شرح ديوان، عروة بن الورد، ص: 207.

33- عروة بن الورد: تح: أسماء أبو بكر محمد، الدّيوان، ص: 87.

34- ابن السّكيت، شرح ديوان عروة بن الورد، ص: 177، 178.

35- ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج01، ص: 86.

36- عروة بن الورد: تح: أسماء أبو بكر محمد، الدّيوان، ص: 68.

37- المصدر نفسه، ص:82.

38- المصدر نفسه، ص: 77.

39- المصدر نفسه، ص: 53.

40- رالف بارتون بري: إنسانيّة الإنسان، تر: سلمى الخضراء الجيوسي، مكتبة المعاف بيروت (د/ط) (د/ت)، ص: 49.